

نسق "الأنا والآخر" في عنوان رواية-أصبحت أنت-
ل: أحلام مستغانمي

*The Arrangement of the self and the other in the title of
Ahlem Mostaghanmi's novel "Becoming You"*

ليلي مساعدي¹

زهرة خفيف*

تاريخ النشر: 2025/06/20	تاريخ القبول: 2024/10/17	تاريخ الإرسال: 2023/12/30
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يعد النقد الثقافي من أهم الظواهر النقدية والأدبية التي رافقت ما بعد الحداثة، جاء كردة فعل على الدراسات الأدبية التي تعنى بدراسة جماليات النصوص الأدبية مهملة بذلك عيوب النص وقبحياته، من هنا كانت الدراسات الثقافية تسعى إلى كشف العيوب المتخفية خلف عباءة الجمالي / البلاغي، وأن تذهب إلى ما هو أبعد من جماليات النص؛ أي البحث عن أنساق المتوارية و المتخفية والربط بين قيم النص والممارسات الثقافية، من ثم فقد سعت الدراسات الثقافية إلى إنشاء منهج بديل تمثل في " النقد الثقافي" يبحث في الأنساق المضمرّة وفي سياقتها المختلفة ثقافيا واجتماعيا وسياسيا... ونظرا لما صاحب النقد الثقافي من تساؤلات عديدة حول نشأته ومن هم أعلامه ورواده عند الغرب وعند العرب، وما أهم الدلالات التي ارتكز عليها في مقارنته للنص تأتي هذه الورقة البحثية للكشف عنها وعن الأنساق المضمرّة في عنوان رواية-أصبحت أنت- لأحلام مستغانمي، والأبعاد الدلالية للمتن الروائي كجانب تطبيقي بعد الجانب النظري

1 جامعة 20 اوت 1955سكيكدة، مخبر التراث الادبي الجزائري الرسمي والهامشي،

leilaleilahanin@gmail.com

* جامعة 20 اوت 1955سكيكدة، مخبر التراث الادبي الجزائري الرسمي والهامشي،

zahrakhefif07@gmail.com

الذي جاء حول النقد الثقافي ورواده عند الغرب وعند العرب وأهم مصطلحاته، ويأتي البحث للإجابة عن تلك التساؤلات.

الكلمات المفتاحية: النقد، الثقافي، الأنساق، المضمرة، "أحلام، مستغاني"، أصبحت، أنت.

Abstract:

*One of the defining literary and critical features of postmodernism is cultural criticism. As opposed to literary studies which emphasize the aesthetics of literary texts, cultural criticism focuses on these texts and their implied meanings and deficiencies. In this sense, cultural studies go beyond the aesthetics of literary texts aiming at revealing the interconnectedness between texts and cultural norms and the text's implicit patterns. Similarly, cultural criticism delves into these implicit patterns and their various cultural, social and political contexts. Since cultural criticism represents a contemporary trend which poses different inquiries on its surge, founding fathers, advocators and connotation used in interpreting texts, this study aims at not only investigating and answering these inquiries but also highlighting these implicit patterns and their connotations in Ahlem Mostaghanmi's *Becoming You*.*

Key words: cultural، criticism، implicit، patterns، Ahlem،Mostaghanmi، *Becoming ،You*.

*** **

المؤلف المرسل: ليلى مساعديّة، leilaleilahanin@gmail.com

1. مقدمة:

تزايدت إشكالية قراءة النص من المنهجيات التقليدية إلى المنهجيات الحديثة والمعاصرة، مرجع ذلك إلى موجة الحداثة وما أحدثته من خلخلة في المفاهيم والمصطلحات، ونتيجة خرقها لكل ما هو سائد ومألوف، وخروجها عن النمطية السائدة إلى المغايرة والتجديد، فظهرت بذلك مناهج نقدية تباينت واختلقت فيما بينها فكان من بين النظريات النقدية المعاصرة التي أولت اهتماما وعناية بالنص الأدبي " النقد

الثقافي"، والذي سنقف عنده من خلال تقديم قراءة في عنوان رواية أحلام مستغانمي- أصبحت أنت-".

وأمام هذا الطرح نقف عند إشكالية هامة مفادها: متظاهر النقد الثقافي ومن هم أعلامه عند الغرب وعند العرب؟ وما مجالات اهتمامه؟

تفرعت عن هذه الإشكالية إشكاليات فرعية: ما مفهوم النسق المضمّر؟ وما الأنساق التي تضمّن عنوان الرواية؟ وهل حمل المتن أجوبة للتساؤلات العنوان؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات قسمت البحث إلى مبحثين: مبحث نظري ومبحث تطبيقي، تضمن المبحث النظري: النقد الثقافي عند الغرب وعند العرب، قراءة في مفهوم النسق المضمّر لغة واصطلاحاً، بينما تضمن المبحث التطبيقي: قراءة في عنوان رواية "أحلام مستغانمي"-أصبحت أنت- سبق ذلك تمهيد ومقدمة وفي الأخير خاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات وقائمة المراجع والمصادر.

2. النقد الثقافي (النشأة والتطور، المفهوم والمصطلح):

1.2 النقد الثقافي عند الغرب:

كانت بدايات النقد الثقافي غربية دون جدال فقد تبلورت معالم الدراسات الثقافية في: «أوروبا وأمريكا في عام 1964 بدون شك ومن خلال تشكّل (مركز برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة) شهدت هذه الحقبة تصدّع الفهم النقدي الذي أشاعته المناهج النقدية الشكلية والبنوية للأدب، الأمر الذي أدّى إلى تأزم أمر النسق المغلق، كالاتجاهات السيموطيقية والتفكيكية والتأويلية، لقد رافق كل ذلك ازدهار أمر الدراسات الخاصة بالتلقي وتطور مدرسة فرانكفورت النقدية (بالمعنى الفلسفي) واندلاع لهيب ما بعد الحداثة»¹.

أحدث الثورة على المناهج الشكلية تأزم أمر النسق المغلق مما أوجد وجهات نظر جديدة في قراءة النصوص كالنظرية الثقافية، وتطور بعض المدارس النقدية واندلاع ثورة ما بعد الحداثة، ويعتبر "هوغارث" «أول رئيس لمركز برمنغهام أشار بوضوح إلى

مصادر النظرية الثقافية وعدّها ثلاثة هي: تاريخية فلسفية أولاً، وإلى حد ما-حسب تعبيره- سوسولوجية ثانياً، وأخيراً أدبيّة نقدية وهذا هو الأهم كما قال هوغارت². وفي إطار الحديث عن بدايات النقد الثقافي «يقضي بنا إلى الإشارة للمفكر الألماني الهويتيدور اندزنو Théodorno في مقالته الشهيرة التي تعود إلى 1949 بعنوان "النقد الثقافي والمجتمع"³.

يعتبر مقاله إشارة إلى بدايات النقد الثقافي، وقد أرجع "هوغارت" أصول النظرية الثقافية إلى ثلاث مصادر فلسفية تاريخية أدبيّة نقدية، وفي «عام 1971-بقول ايزابغر- بدأ مركز الدراسات الثقافية المعاصرة، بجامعة برمنجهام في نشر أوراق عمل في الدراسات الثقافية- تناولت: وسائل الإعلام- MediaK والثقافة الشعبية- Popular Culture، والثقافات الفرعيّة-Sub Culture، والمسائل الإيديولوجية، والأدب، وعلم العلامات-Semiotics، والجنوسة-Gendre والحركات الاجتماعية، والحياة اليومية...»⁴. بدأ مركز الدراسات الثقافية المعاصرة، بجامعة برمنجهام في نشر أوراق الدراسات الثقافية، تناولت مجالات مختلفة، بينما اتضحت معالم النقد الثقافي «بشكل منهجي في بداية الثمانينات في كتابات عدد من النقاد. ولا سيما أستاذ جامعة بريكلي. كاليفورنيا" ستيفن جرينبلات Greebelt Stephen "،...»⁵.

وقد حدد جرينبلات معالم النقد الثقافي بقوله:«في النهاية لا بد للتحليل الثقافي الكامل، أن يذهب إلى ما هو أبعد من النص؛ ليحدد الروابط بين النص والقيم من جهة، والمؤسسات والممارسات الأخرى في الثقافة من جهة أخرى»⁶.

حسب "جرينبلات" على التحليل الثقافي أن يذهب إلى ما هو أبعد من النص؛ أي البحث عن الأنساق المتوارية والمتخفية والربط بين قيم النص والممارسات الثقافية.

أما عند العرب فقد جمعوا بين الماركسية الجديدة والمادية الثقافية والتاريخية الجديدة فانطلقوا من نقاط التقاء هذه الاتجاهات، يقول الدكتور "عبد العزيز حمودة": «إننا جمعنا بين الماركسية الجديدة والمادية الثقافية والتاريخية الجديدة، ننطلق من نقاط اللقاء بين تلك الاتجاهات أكبر بكثير من نقاط الافتراق، ثم أنّ الأسماء التي ارتبطت بالمادية الثقافية أسماء مفكرين ونقاد من المحسوبين على اليسار الأوربي

الناضح، وفي مقدمتهم بالطبع رايموندويليامز...»⁷ بينما يؤكد في موضع آخر أن «كل الاتجاهات الجديدة (ما بعد حدائية)- حسب تعبيره- الاختلافات فيما بينها قد ذابت في الاتجاه النهائي الغالب وهو النقد الثقافي، إنَّ المؤشر الأساس في الدراسات الثقافية هو أنَّ المصطلح هنا سياسي بالدرجة الأولى والأخيرة والسياسة التي يرتبط بها تعبر عن موقف اليسار العالمي في رفض التحولات القافية التي واكبت اقتصاد السوق وقيم الاستهلاك في مجتمع صناعي رأسمالي على الثقافة الشعبية»⁸.

يؤكد أن الدراسات الثقافية مصطلح سياسي ارتبط بالسياسة التي عبرت عن الموقف اليساري، أمَّا الدكتور "حفناوي بعلي" «فلا يذهب بعيداً هو الآخر عن فكرة ارتباط النقد الثقافي بالسياسي والأيدولوجي عن هدف الدراسات الثقافية (تهدف الدراسات الثقافية إلى تناول موضوعات تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة وتروم من وراء ذلك إلى اختبار مدى تأثير العلاقات على شكل الممارسات الثقافية»⁹.

تبحث الدراسات الثقافية في الموضوعات المتعلقة بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة ومدى تأثيرها في الممارسات الثقافية.

2.2. النقد الثقافي عند العرب:

كانت بدايات النقد الثقافي في الساحة العربية مع الناقد السعودي "عبد الله الغدامي" فله الفضل في تبني النقد الثقافي وتطبيقه على بعض النماذج الشعرية من الثقافة العربية ومحاولة تعرية العيوب المتوارية والتي لم يتم التطرق إليها من خلال النقد الأدبي الذي يعنى بجماليات النصوص، "فالغدامي" هو: «أول من تبني مفهوم النقد الثقافي تأثراً بأفكار (ليتش) وتطويراً لها، وقد استخدم أدواته الإجرائية لاستكشاف ظواهر عربية عديدة لم تستطع مناهج النقد الأدبي السابقة التصدي لها وكشف أنساقها الثقافية، وهو من أهم النقاد العرب المعاصرين الذين يملكون مشروعاً في هذا الشأن»¹⁰.

كانت فاتحة النقد الثقافي لدى العرب على يديه ثم انهال بعد ذلك النقاد العرب عليه فممنهم من أيدوه ومنهم من عارضه في نقاط وواقفه في أخرى من بينهم: «عبد النبي

اصطيف في كتاب (نقد ثقافي أم نقد أدبي) الذي احتوى السجال النقدي حول النقد الثقافي وكشف التباعد بينه وبين عبد الله الغدامي...»¹¹.

إذا كان "عبد النبي اصطيف" كشف عن التباعد بينه وبين "الغدامي" فإن «حفاوي بعلي في كتابه (مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن) الذي لم يخرج فيه على مجمل ماجاء به الغدامي...»¹².

ومن بين النقاد الذين تناولوا بعض القضايا العربية في اطار النقد الثقافي من خلال "الأنا والآخر" نجد «صلاح قنصوة في كتابه (تمارين في النقد الثقافي) الذي درس فيه الجمل العربية والأمثال الشعبية الشائعة والمتداولة بين الناس في ضوء المقاربة الثقافية القائمة على مجموعة من التصورات الفلسفية ذات الطابع الاجتماعي ليقدم الدليل على انعدام الهوية بين الشعبي والنخبوي(العامي/الثقافي)، وقد تناول كل الأفكار والقضايا المستجدة في الساحة الفكرية والعربية تقريبا، كما رصد ثنائية الهوية والآخر من خلال الدفاع عن الذات،...»¹³.

قدم لنا "صلاح قنصوة" من خلال دراساته للجمل والأمثال الشعبية الشائعة والمتداولة، انعدام الهوية بين ماهو شعبي ونخبوي أو العامي والثقافي.

ومن النقاد الذين بحثوا عن أثر فعل الثقافة في المجتمع، "محسن جاسم الموسي" «في كتابة (النظرية والنقد الثقافي) الذي يتحدث عن أثر فعل الثقافة في المجتمع، وكتابه دعوة لنقد الذات وتصحيح الأخطاء بغية التحرر من شرنقات النصوص والخطابات المنتقاة للكبار والمشهورين من الكتاب والحذر من الخطابات التي تهتم بالهامشي والعادي والعامي والسوقي والوضيع...»¹⁴.

ونذكر أيضا «يوسف عليما في كتابه (جماليات النقد الثقافي) ...ادوارد سعيد ومحمد عابد وعلي الورد، وعبد العزيز حمودة، وجابر عصفور وإدريس الخضراوي، وأدونيس وكريم شغيدل وعبد الرحمن أحمد»¹⁵.

3.2. النسق المضمّر:

أ-النسق لغة:

أخذ النسق دلالات متعددة جعلته يبتعد نوعا ما عن المعنى اللغوي، جاء في لسان العرب بمفهوم: «النَّسَقُ من كل شيءٍ ما كان على طريقة نظامٍ واحدٍ، عامٌّ في الأشياء، وقد نسقه تنسيقاً؛ ويخفف ابن سيده: نَسَقَ الشيءَ يَنْسُقُهُ نَسْقًا ونَسَقَهُ نَظْمَهُ على السواء، وأنْتَسَقَ هو وتَنَاسَقَ، والاسم النَّسَقُ، وقد انْتَسَقَتْ هذه الأشياءُ بعضها إلى بعض أي تَنَسَّقَتْ. والنحويون يسمون حروف العطف حروف النَّسَقِ، لأنَّ الشيء إذا عَطَفَتْ عليه شيئاً جرى مجرى واحداً... والتَّنْسيقُ: التَّنْظِيمُ، والنَّسَقُ: ما جاء من الكلام على نظام واحد»¹⁶.

النسق كل ما كان على طريقة منسجمة ومنتظمة، والنسق انتظام الكلام، وقد ورد في أساس البلاغة" للزمخشري" المعنى القريب منقول " ابن منظور": «نَسَقَ الدرّ وغيره ونَسَقَهُ ودرّ منسوق ومنسق ومنسَّقٌ وتَنَسَّقَتْ هذه الأشياء وتناسقت. ومن المجاز: كلام متناسق وقد تناسق كلامه وجاء على نسق ونظام. وثغر نسق. وقام القوم نسقا»¹⁷.

ومنه فإن مصطلح النسق قد وجد في الثقافة العربية ولم يكن مغيبا عنها، كل ما جاء على نظام واحد لا يخرج عن مفهوم النسق.

ب-النسق اصطلاحا:

أما مع المفهوم الاصطلاحي تغير المعنى فاتخذ " النسق " مفهوما بنيويا يتناغم وينسجم ليولد نسقا أشمل، فالنسق «انتظام بنيوي يتناغم وينسجم فيما بينه ليولد نسقا أعمّ وأشمل»¹⁸. فالنسق بات يمتاز بالشمولية نتيجة تناغم وانسجام البنى فيما بينها، ويعتبر النسق البنيوي أيضا «مظهر من مظاهر النسق العام، فقد يكون النسق مغلقا كما تطرحه البنيوية الصورية، وقد يكون مفتوحا كما هو الشأن، بالنسبة إلى المناهج النقدية الأخرى»¹⁹.

على اختلاف المناهج اختلفت الأبعاد الدلالية للنسق فقد تكون مغلقة أو مفتوحة.

ويذهب الغدامي إلى القول: «يجري استخدام كلمة (النسق) كثيرا في الخطاب العام والخاص، وتشيع في الكتابات إلى درجة قد تشوه دلالتها. وتبدأ بسيطة كأن تعني ما كان على نظام واحد، كما في تعريف المعجم الوسيط .

وقد تأتي مرادفة لمعنى (البنية- structure) أو بمعنى (النظام-system) سب مصطلح دوسوسير»²⁰.

تبدأ كلمة النسق بمفهوم بسيط لتتسع دلالتها، حملت ما كان على نظام واحد حمل معنى البنية والنظام حسب دراسات دوسوسير.

ويعرفه "صلاح قنصوة النقد الثقافي بأنه: «دراسة النصوص والخطابات في ضوء المقارنة الثقافية، لكونها حاملة أنساق ثقافية معينة»²¹.

النقد يسعى لدراسة النصوص والكشف عن الأنساق الثقافية؛ أي مقابلة الخطابات والنصوص في ضوء المقارنة الثقافية.

4.2. النّسق المضمّر:

مثلما هناك أشياء ظاهرة نلاحظها ونعياها ونفهما هناك أشياء تتوارى وتتخفى خلف الحجب " والنسق المضمّر يعد «من المصطلحات الثّقافيّة المركزيّة؛ فالثّقافة تملك أنساقها المهيمنة التي تتوسّل لها عبر أقنعةٍ من التّخفي؛ أهمّها الجماليّة التي تمرّ المسكوت عنه والمستز، خلف الجمالي؛ وهو المضمّر النّسقي»²².

هذا المضمّر يتوارى خلف جماليات النصوص لتمرير المسكوت عنه والسعي إلى كشفه وتعريفه للواقع وإزالة الستار عنه، وهو: «مجموعة من التّرسّبات المتكوّنة عبر البيئات الثّقافيّة والحضاريّة المختبئة خلف عباءة النّصّ، وتشكّل بنية المتلقّين ذهنيًا وثقافيًا الذين يستجيبون لها ويكشفون مضمّراته الحقيّة تأويلاً وتفسيرًا وتفكيكًا»²³.

النسق المضمّر جاء نتيجة الترسبات التي تكونت عبر البيئات الثقافية والحضارية مختبئة خلف عباءة النصوص، والتي نسعى إلى تأويلها والكشف عنها، فالنقد الثقافيّ «يبحث في الأنساق المضمّرة للخطابات ويتعامل مع النّصّ بوصفه حادثه ثقافيّة، وهو نشاط فكري يبحث الثقافة بشموليتها بوصفها موضوعًا لبحثه وتفكيره معبرًا عن

مواقفه إزاءها، ونقد أنساقها المضمرة تنطوي عليه عبر الخطابات الثقافية بكلّ تجلياتها وأنماطها وصيغها»²⁴.

يبحث النقد الثقافي باعتباره نشاط فكري في الثقافة بشموليتها ونقد أنساقها المضمرة في الخطابات، هو «ما تواضعت عليه جماعة ما اجتماعياً ودينياً وأخلاقياً وثقافياً؛ فغداً مميّزاً لها ومتحكّماً في سلوكها ورؤيتها للعالم والأشياء، فيصعب التخلّص منه لترسبه في لا وعي تلك الجماعة. والنسق الثقافي بوصفه قناعاً يُحيلنا إلى دلالات نسقيّة مختلفة خلف أغطية الجماليّ ومتوسلة بها لتغرس ما ليس بجماليّ في الثقافة؛ لذا يفتش في أنساق مضمرة همّشها الأداءات اللغويّة أو حيلٌ نفعيّة. فيغدو المجاز قيمة ثقافيّة، تصبّ في النسيج اللغويّ والقالب الجماليّ الذي يحمل المضمّر، ويحيل عليه، وكذا التروية وما أشبهها...»²⁵.

تكمن صعوبة التخلص من الأنساق المضمرة كونها غدت متحكمة في سلوك الجماعة اجتماعياً ودينياً وثقافياً وأخلاقياً، هذه الأنساق اختفت خلف الجماليّ البلاغيّ، فالنقد الثقافي يبحث في كل ماله «علاقة بالثقافة، ومشكلاتها المعقدة، التي تعكس السّيّاقات الثقافيّة والأخلاقيّة والإنسانيّة والاجتماعيّة والدينيّة والسّياسيّة؛ أي مختلف المنجزات المعرفيّة والخطابات المهملة»²⁶.

يعنى النقد الثقافي بالبحث عن مشكلات الثقافة المعقدة التي تعكس قيماً إنسانية مختلفة ومن أهم ما جاء به يركز على كل الخطابات والمنجزات المعرفية فلا فرق عنده بين ما هو هامشي ورسوي.

انتقل النقد الثقافي من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية فكان من أهم أعلامه "عبد الله الغدامي".

اتساع دلالة النسق من كونه ما جاء على نظام واحد إلى نسق بنيوي يمتاز بالشمولية والانسجام والتناغم.

يبحث النقد في الأنساق الثقافية المتوارية خلف ما هو جمالي بلاغي؛ أي قبحيات النص.

3. نسق "الأنا والآخر" عنوان رواية "أصبحت أنت" لأحلام مستغانمي:

يعد العنوان بوابة النصوص وأول ما تقع عليه عين القارئ هذا ما جعله يحتل مكانة كبرى لدى الدارسين والقراء على حد سواء، فالعنوان هو من يجعلك تقف عند عناوين معينة وتشتري الكتاب دون معرفة ما بدخله فقط لأن العنوان جذاب فلفت انتباهك لذلك لكتاب وهناك عناوين تجعلك لا تقف عندها، وبذلك «فقد أصبحت العناوين موضوعًا صناعيًا "Objet artificiel" لها وقع بالغ في تلقي كل من القارئ والجمهور والنقد والمكتبيين، وهي تحت طائلة تعليقاتهم قصد القبض عليها»²⁷.

العناوين الجذابة والممتعة تحفز القارئ على الولوج إلى عالمها الخفي والعميق بغية القبض عن الدلالة العميقة له والإحالة على مضمون النص، كون العنوان «يعلن عن طبيعة النص وهو أيضا الوسيلة التي تدلنا عن طبيعة المنهج الذي نختاره في قراءة النص ومن ثم يعلن عن نوع القراءة التي تناسب هذا النص»²⁸.

ومنه فإن للعنوان أهميته البالغة التي جعلت أقلام النقاد والباحثين تنهال عليه بالدراسة، من هذا المنطلق ارتأيت أن أقف عند عنوان رواية "أحلام مستغانمي"- أصبحت أنت-

جاء العنوان جملة تامة المعنى، أصبح فعل ماضي ناقص مبني على السكون لاتصاله بالتاء المتحركة، والتاء المتحركة ضمير متصل مبني في محل رفع اسم أصبح، أنت ضمير منفصل مبني في محل نصب خبر أصبح وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة.

أما عن البعد الخفي والمتواري خلف الدلالة السطحية فالملاحظ احتوائه على ثنائية ضدية تمثلت في نسق "الأنا والآخر" " المرأة والرجل" الذكورة والفحولة":

هذا الآخر، ترى فيم تمثل هل الزوج أو الحبيب أو الأب؟

أم تراه حمل بعدا صوفيا من خلال الحلول والذوبان في الذات الإلهية؟ أو هو مجرد حالة إعجاب وانهار بالآخر النموذج المحتذى؟

وهل هذا الذوبان كان نتيجة الحب أم نتيجة التسلط والتحكم؟

"أصبحتُ أنتَ" يبدو أن العنوان حمل نسق الأنا المعجبة بالآخر لدرجة الذوبان في لأخر نتيجة الإعجاب والحب الفائق وربما نتيجة أشياء متميزة جعلتها تفقد كيانها وتتحول إلى ذات مغايرة، هذا التحول والحركية أفقدها شخصيتها التي تنازلت عنها ولم تملك القوة للحفاظ عليها، هذه الذات التي جعلتها ذات متعالية تسمو وترفع عن كل ما هو سيء حتى باتت النموذج الذي أحبته وذابت في كيانه؛ إذ ليس من السهولة أن ن فقد ذواتنا لو لم يكن هذا الآخر كائن يتميز بالقوة والصلابة والطهارة ونتيجة الحب والعشق اللامتناهي.

أو ربما يكون هذا الذوبان ناجم عن صراع بين الرجل والمرأة ورغبته في أن تكون كما يريد فيمارس عليها السلطة الذكورية فتصبح كدمية يحركها كيف ما يشاء، فنجد المرأة تحاول أن تثبت وجودها وتحقق أحلامها ورغبتها، لكنها تقف عاجزة أما م جبروت الرجل سواء أكان الأب أو الزوج أو الحبيب، الذي يمارس عليها السلطة بحكم الدين والأعراف والقوانين الاجتماعية فيجعلها كما الآلة يسيرها كيف يشاء، فندها تنصاع لأوامره فتصبح بطريقة أو بأخرى ذاته التي يتحكم فيها كما يشاء.

ويمكن القول أن العنوان حمل بعدا روحيا صوفيا فيه تماهي وحلول في الذات العليا؛ كما أعلام الصوفية (الحلاج ابن عربي، العدوية) الذين ترفعوا عن ملاذات الدنيا ومتاعها وهاموا عشقا بالذات الإلهية.

يقول الحلاج:

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا»²⁹.

لو أجرينا مقارنة بين ما قاله الحلاج "روحان حللنا بدنا" وعنوان رواية أحلام "أصبحتُ أنتَ" لوجدنا أن العبارتين تحملان البعد ذاته وهو التماهي والذوبان والحلول في الآخر كائن من يكون إلهها أو أبا أو حبيبا أو وطننا، لكن ترى من تكون ذات أحلام التي جعلتها تبوح لنا بأن أنها انتقلت من ذاتها إلى ذات أحبها وذابت حد الفناء في ذاتها،

"أصبحتُ أنتَ" العنوان حمل في أذهاننا أسئلة متعددة قبل الولوج إلى عالم المتن الذي سيحمل إجابة عن تلك التساؤلات التي راودتنا من خلال العنوان.

تفتتح أحلام الفضل الأول بقولها:

«تلك القصيدة التي كلما شرعتُ في كتابتها، كتبتَ غيرها، تلك التي تحببها بداخلك، ستدرك يوماً ما، أنّها هي التي تكتبك»³⁰.

تذهب بقولها إلى أن الأشياء التي تكمن بداخل الذات حبيسة زمنا معين، أو بمعنى أصح تنمو وتكبر معنا لتبزغ إلى النور إلى عالم الكتابة ذات لحظة ودون سابق إنذار، رغم محاولتنا العديد من المرات في الشروع في كتابتها لأن أبت أن تنساق ورغبنا في تحديد موعد ميلادها، فبدل أن نكتبها "نحن" تكتبنا "هي".

كتبت "أحلام مستغانمي" العديد من الروايات التي رفعتها إلى العالمية في مجال الرواية خاصة، عالجت العديد من القضايا، صورت لنا الثورة ونضال والدها، كانت تذوب مع كل كلمة تكتبها، تنهز بالشخصيات التي ترسمها، كان والدها النموذج الأمثل والأسطورة الخالدة في ذهنها منذ الطفولة حتى الآن، رأته فيه كل رفعة وسمو وارتقاء ومثالها الأعظم، عاشت معه كل لحظة ومع كل لحظة كان يترسخ بداخلها حيا وانهارها بشخصية والدها، فرفته مكانا عليا، حتى ذابت وتناست كيانها لدرجة فقدان "الأنا" والتماهي مع "الأخر" لدرجة أنها أصبحت في حيرة من أمرها.

كانت الرغبة في الكتابة تجتاح "أحلام" في كتابة شيء معين ومحدد من طرفها لكن كانت تولد قصص غير التي ترغب فيها، كأن تجسد شخصية "شهرزاد" كل يوم مع ميلاد قصة جديدة لتكسر "شهريار" وتعيده عن قراراته لتصل إلى نهاية لم تكن تتوقعها فتأتي دون رغبة منها، أو كانت حلما فأصبحت حقيقة.

تقول: «ربّما أصبحت روائيةً يوم أيقنت أننا لن نكون بعد الآن معاً، وأنّ أشياء كثيرةً حدثت لن تدري بها أبداً، ولن أرويهما لك كما اعتدت أن أفعل في الماضي»³¹.

من الوجد يولد الإبداع، فلسنا من نختر لحظة الكتابة ولكن وحدها الكتابة من تختار لحظة الميلاد، ووحده الغياب والألم والحنين الباعث على ذلك.

تقول: «كنت في تحدّ البدايات، أرقص حول نار الشّعْر، صبيّة تلهو بإضرام الحرائق في الكلمات، معتقدة أنّ الآباء كالألهة، خالدون، وأنهم يأتون دومًا في النهاية لنجدتنا، فلطالما تركت في متناولي الكبريت، واثقًا أنّك حصّنتني ضدّ اللهب... إلى أن مضيت ذات يومٍ إلى الأبد، من دون أن تترك لي وصيّةً، سوى جينات جنونك، وفيضًا من الكتب»³².

ولدت "أحلام" محملة بجينات جنونية وفيض من الكتب، جعلها تتحدّى البدايات الأولى، كون "أحلام" بدأت شاعرة لتعتنق فيما بعد عالم الرواية من بابها الواسع، كانت تعتقد في الحصانة الأبوية لن تزول وستظل خالدة كما "الألهة"، وماذا بعد الزوال..؟

إنه «الفقدان الأكبر لا منطوق له، لذا لا يمكن تصديقه.

ثلاثون سنةً ولّت ولم أكتب عنك بعد. كما في الحبّ، ثمّة من نكتب عنهم لتأنيبهم. كنتُ في كلّ كتاب أو اصل الكتابة إليك لتكذيب حقيقة غيابك.

احتفظت لك بدمعة متأخّرة لكتابٍ كهذا.

" لا شيء يدوم ولا حتّى الموت" كتب بروس في تأبين أمّه أتكون الكتابة أطول عمرا من الموت؟»

إنه الوجد الأكبر والألم الأعظم والمرافق لنا مدى الحياة، إنه الغياب الجسدي لا الروحي، إنه وجع الآباء حين يغادرون هذا العالم، نحزن ونبكي في صمت ونخفي آهاتنا مدى الحياة.

هذا الوجد العظيم انبعث لدى "أحلام" في كتبها خلدت والدها وأحزان على فراق ليس كمثله فراق، الذي نجم عنه الكتابة الخالدة، التي ربما يكون عمرها أطول من الموت.

بعد هذا الوجد أصبحت تكتب لغائب لن يقرأ كتابتها، لكنه موجود في مخيلتها في كيانها في حقيقة وجوده في عالمها الورقي، في كل شيء كيف لا وهو أسطورتها الخالدة

ومثالها الأعلى، وفقدان كيانها وانتقالها من "ذاتها" إلى "الذات الأبوية" خير دليل على ذلك، وهذا ما أحل العنوان إليه "أصبحت أنت"، الانتقال من الأنا إلى الآخر.

الرواية عبارة عن سيرة ذاتية تروى طفولة الكاتبة ومسيرة والدها "سي الشريف"، محملة بالعديد من الأبعاد الثقافية والتاريخية والسياسية التي عايشتها الجزائر خلال مراحلها التاريخية.

4. خاتمة:

بعد هذه الدراسة التي تناولت نظرية النقد الثقافي ومعرفة أهم أعلامه ورواده عند الغرب وعند العربي والتطرق إلى النسق المضمّر باعتبار أن المقاربات الثقافية تبحث في الأنساق المتوارية والمختبئة خلف جماليات النصوص والتي تكونت عبر الترسبات البيئية والثقافية داخل الخطاب، وعن الموضوعات المتعلقة بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة، ومحاولة استنطاق عنوان رواية "أحلام مستغانمي" -أصبحت أنت- مع لمحة حول مضمون الرواية، وفي الختام وصلنا إلى جملة من النتائج مفادها:

- كانت بدايات النقد الثقافي غربية، تشكلت مع مركز برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة، تعود بداياته إلى المفكر الألماني اليهودي "تدور أندزنو" سنة 1946.

- ترجع أصول النظرية الثقافية إلى ثلاث مصادر: تاريخية، فلسفية، أدبية نقدية.

- ارتباط مصطلح الثقافة بالسياسة التي عبرت عن الموقف اليساري.

- غاية النقد الثقافي كشف الأنساق الثقافية المضمرة التي تكونت عبر الترسبات البيئية والثقافية داخل الخطاب، وعن الموضوعات المتعلقة بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة.

- يعتبر الغدامي رائد الدراسات الثقافية (النقد الثقافي) عند العرب تم توالت لدراسات النقدية في المجال مع العديد من النقاد، "عبد النبي اصطيف"، "حفناوي بعلي"...

- اتخذ مفهوم النسق في الدراسات الحديثة دلالة بنيوية تمتاز بالشمولية والاتساع والتناغم والانسجام.

- حمل عنوان رواية أحلام مستغانمي-أصبحت أنت- جملة من التساؤلات حول من تكون " الأنا" التي سلبت الكاتبة ذاتها وجعلتها تذوب في الطرف الأخر، العنوان في الوهلة الأولى حمل جملة تامة المعنى بسيطة، إلا أنه حمل في أبعاده دلالات مكثفة، هذه الأبعاد والتساؤلات كشف عنها المتن الحكائي.

- عكست الرواية بعض الأنساق الثقافية والتاريخية والسياسية، كما صورت لنا مسيرة والدها النضالية، والصورة المثالية التي ظلت خالدة في مخيلة الكاتبة رغم رحيل والدها.

- على الرغم من جهود الدراسات النقدية في مقارنة النصوص والبحث عن قبحيات النص بعيدا عن جمالياته، يعتبر إجحافا في حق النص وبالتالي لا بد من إحداث التوافق بينهما والمزج بين العيوب والجماليات لنصل إلى مبتغى النص والكشف عن كل الأبعاد المتضمنة سواء أكانت سطحية أو عميقة ولبلوغ أغوار النص لا بد من الوقوف عند البعد السطحي أولا والمعنى العميق للنصوص ثانيا، وبالتالي التركيز على البعد الجمالي وعلى القبحيات كذلك.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الرواية تحتوي على أنساق تاريخية وسياسية وثقافية الوقوف عندها يتطلب دراسة معمقة وهذا ما نسعى إليه من خلال أبحاث قادمة إن شاء الله.

*** **

5. الهوامش:

- ¹ ميرخليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري، بغداد، ط1، 2001، ص22.01.
- ² سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، المرجع السابق، ص22.
- ³ فاطمة الزهراء قندوز، النقد الثقافي (أزمة تلقي المناهج النقدية المعاصرة) أنموذجا، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط1، 2020، ص56.
- ⁴ عز الدين المناصرة، النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاوي للنشر، الأردن، ط1، 2005، ص232.
- ⁵ ملحة بنت معلث بن رشاد السحيمي، نظرية النقد الثقافي مالها وما عليها، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، ع31، م 12، 2020، ص05.
- ⁶ مرجع نفسه، ص05.
- ⁷ سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، المرجع السابق، ص23.
- ⁸ مرجع نفسه، ص23.
- ⁹ مرجع نفسه، ص24.
- ¹⁰ سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، المرجع السابق، ص24.
- ¹¹ مرجع نفسه، ص33.
- ¹² مرجع نفسه، ص33-34.
- ¹³ سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، المرجع السابق، ص34-35.
- ¹⁴ مرجع نفسه، ص34-35.
- ¹⁵ مرجع نفسه، ص33-4-35.
- ¹⁶ مرجع نفسه، ص33-4-35.
- ¹⁷ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، م10، مادة (نسق)، دار صادر، بيروت، د ط، دت، ص352-353.
- ¹⁸ الزمخشري أساس البلاغة، تج: فريد نعيم، شوقي المعري، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1998، مج13، ص: 842.
- ¹⁹ محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1996، ص: 156-157.
- ²⁰ أحمد يوسف، القراءة النسقية، سلطة البنية وهم المحايثة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2007، ط1، ص116.
- ²¹ عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2005، ص76.
- ²² سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، المرجع السابق، ص34.
- ²³ حمدة خلف العنزي، الأنساق الثقافية المضمرة في رواية " ترمي بِشَرِّر...!": عبده خال، الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، العدد: 11، سبتمبر 2022، ص324.

- ²⁴ مرجع نفسه، ص325.
- ²⁵ مرجع نفسه، ص325.
- ²⁶ المرجع نفسه، ص325.
- ²⁷ عبد الحق بلعابد، "عتبات"(جيرار جينيت من النصّ إلى المناص)، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2008، ص66.
- ²⁸ عمار حلاسة، تحليل سيميائي لقصيدة رباعيات آخر الليل للدكتور عبد الله حمادي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص45.
- ²⁹ مصطفى الغماري، أسرار الغربية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص131.
- ³⁰ أحلام مستغانمي، أصبحت أنت، دار نوفل، دط، 2023، ص 11.
- ³¹ أحلام مستغانمي، المرجع السابق، ص 11.
- ³² م ن، ص 12.